بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يوسف

لما خُتِمت سورة هود بقوله تعالىٰ:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ .[هود: ١٢٠]

جاءت هذه السورة بعدها، وفيها قصة رسول من هؤلاء الرسل الكرام، وهو يوسف عليه السلام. يقول الله تعالىٰ:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾

﴿الٓر﴾ سبق الكلام عليها.

﴿تِلْكَ﴾ هذه ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ بين يديك واضحة، بيِّنة، سهلة، لا خفاء فيها ولا إبهام، فيها الهدىٰ والنور، فيها الهداية والفلاح، فاتبع ما فيها، واعمل به.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: هذا الكتاب، علىٰ محمد ﷺ ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ بأفصح اللغات، وأكثرها بيانًا، وأوسعها انتشارًا، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتفهمون ما فيه، وتعملون به، فتسعدون في الدنيا والآخرة.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾

أي: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ في هذا الكتاب، وهو القرآن ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الذي يتضمن العِبَر والحِكَم والعجائب، والذي ليس فيه إلَّا الحقائق ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: فيما نوحيه إليك، ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل هذا القرآن، أو من قبل هذا القصص ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عنه، وعن معرفة ما فيه.

ولذلك: فهو ليس من عندك، بل من عند الله، الذي أوحاه إليك قرآنًا عربيًا، وقصصًا واقعيًا.

ومن هذا القصص قصة يوسف عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

أي: اذكر يا محمد وقت أن ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ ذات يوم بعد أن استيقظ من نومه بكل أدب ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ورأيت ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ كذلك ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ جميعًا ﴿لِى سَٰجِدِينَ﴾.

وفهم أبوه تأويل الرؤيا، وعرف أن يوسف سيكون ذا شأن، وأن إخوته سيخضعون له، فخاف عليه من حسد إخوته له، لذلك:

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ يا يوسف لا تحدِّث إخوتك بهذه الرؤيا، حتىٰ لا يُوقِع الشيطان بينهم وبينك، ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ﴾ يؤذونك به، حيث ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

فاحذر عداوة الشيطان، و﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ هذه ﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾.

وهكذا حذَّره **أولًا**. ثم أشار إلىٰ تفسير الرؤيا **ثانيًا**، فقال له:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

أي: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وهكذا تدل رؤياك يا بنيَّ علىٰ: أن ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ ويختارك ويصطفيك لنبوَّته، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿يُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: تعبير الرؤى وتفسيرها.

﴿وَ﴾ **ثالثًا** ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالإيحاء إليك، وإرسالك برسالته ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بعفوه عنهم، وإدخالهم الجنة ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا يوسف ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق النبوَّة ﴿حَكِيمٌ﴾ فيمن يختاره لها، ويشرِّفه بها.

ثم تبدأ تفاصيل هذه القصة علىٰ النحو التالي، يقول الله تعالىٰ:

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾

أي: في هذه القصة ﴿ءَايَٰتٌ﴾ ودلائل علىٰ نبوَّة محمد ﷺ، وفيها عِبَر ومواعظ ودروس ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾، يستفيدون بها، وينتفعون منها، في دنياهم، وآخرتهم.

ثم يدعو ربنا عز وجل إلىٰ تذكُّر هذه القصة، وما فيها من دروس وعِبَر، فيقول:

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾

يعني: قال بعض إخوة يوسف لبعضهم الآخر: نحن عشرة رجال نخدم أبانا ونقوم علىٰ رعايته، ومع ذلك فهو يحبُّ يوسف وأخاه، وهما أصغرنا، أكثر مما يحبنا نحن، ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ بهذا التصرف ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الصواب ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح.

وكأنَّ أحدهم يقول: ماذا تقترحون أمام هذا الفعل من أبينا؟ فكان الجواب من أحدهم:

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

أي: أبعِدوا ﴿يُوسُفَ﴾ عن وجه أبيكم، بأن تنفوه من الحياة بالقتل، أو من الأرض

التي فيها أبوكم بنفيه إلىٰ أرض بعيدة عنه، وفي هذه الحالة: يكون حب أبيكم لكم وحدكم، ويعاملكم بعده معاملة حسنة، تكونون بها ﴿صَٰلِحِينَ﴾ معه، أو صالحين في نظره، أو صالحين بتوبتكم وندمكم علىٰ ما تفعلونه بيوسف.

ويبدو أنَّ الجميع وافقوا علىٰ اقتراح القتل، ولكن:

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

يعني: رفض واحد منهم اقتراح القتل، وبدأ يشرح لهم كيفية إبعاد يوسف عن وجه أبيهم ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي: في قاع البئر، فهو أهون من القتل، وأحرىٰ أن ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ الذين يسيرون في الطريق، فيأخذونه معهم، ويبعدونه عن أبيكم، وهذا أسلم له ولكم ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ شيئًا مما تقترحون.

واقتنعوا بالاقتراح وتوجَّهوا إلىٰ أخيهم؛ ليتسنَّىٰ لهم تنفيذ ما يريدون، وطلبوا منه أن يخرج معهم، وذهب يوسف ليستأذن أباه، فرفض أبوه أن يذهب يوسف معهم، وهنا: توجَّهوا إلىٰ أبيهم:

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾

أي: لم لا ترسله معنا، وتأمننا عليه، فنحن حريصون علىٰ مصالحه، حريصون علىٰ صيانته من كل أذى. ثم قالوا يا أبانا:

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ اتركه يأتي معنا ﴿غَدًا﴾ إلىٰ الصحراء ﴿يَرْتَعْ﴾ في أكل الفواكه، وما يحب ﴿وَيَلْعَبْ﴾ كما يلعب مَن في سِنِّه، وينطلق كما يحب ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من كل مكروه وأذى. وهنا:

﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم:

أولًا: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ ويؤلم قلبي ﴿أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ بعيدًا عني؛ فأُصاب بالقلق عليه.

وثانيًا: ﴿وَأَخَافُ﴾ عليه ﴿أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ منكم، ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ مشغولون بأموركم.

وسكتوا عن السبب الأول وهو حزن أبيهم على يوسف، ولكنَّهم أجابوا عن السبب الثاني وهو خوف أبيهم عليه من الذئب:

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

أي: ﴿قَالُواْ﴾ لأبيهم: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ أي: كيف يأكله الذئب ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة نستطيع الدفاع عنه، لا يمكن أن يأكله الذئب، فأرسِلْه معنا.

فأرسَلَه معهم، وذهبوا به بعيدًا عن أبيهم:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ بعيدًا عن أبيهم، وعن العمران، واستقر رأيهم على نفيه بعيدًا عنهم ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ﴾ كذلك على ﴿أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي: في قاع البئر، كما اقترح واحد منهم سابقًا، نفَّذوا ما أجمعوا عليه، وألقوه في قاع البئر، وتركوه وانصرفوا.

وهنا يقول رب العزة: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ وهو في الجب؛ اطمئناناً لقلبه، وتثبيتًا لفؤاده ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ بعد ذلك ﴿بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ الذي فعلوه معك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الآن أنه يوحَى إليك، ولا يشعرون أنك ستنبِّئهم بما يفعلون. وانصرف إخوة يوسف من عنده وتركوه.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾

أي: عادوا إلىٰ أبيهم في المساء، وهم ﴿يَبْكُونَ﴾ ويتباكون، وكأن أباهم سألهم: لماذا تبكون؟ فاعتذروا لأبيهم عمَّا وقع ليوسف فيما زعموا:

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

يعني: ﴿قَالُوا۟﴾ وهم يكذبون علىٰ أبيهم ﴿يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾أي: نتسابق مع بعضنا البعض ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ﴾ وحده ﴿عِندَ مَتَـٰعِنَا﴾ من ثياب وغيرها ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ ونحن بعيدون عنه.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: ما أنت بمصدِّق لنا فيما نقول، حتىٰ ﴿وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ﴾ أي: لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق، فضلًا عن أنك لا تثق فينا أصلًا لحبك ليوسف، بل تسيء الظن بنا.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ لأبيهم ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ﴾ لأنه ليس بدمه عليه السلام، وذلك؛ ليقنعوا أباهم أن الذئب أكله كما يزعمون.

ولكن ذلك لم يقنع نبي الله يعقوب، عليه السلام الذي سكت ولم يناقش، حيث ﴿قَالَ﴾ لهم فقط: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ﴾ الله أعلم به.

وأمَّا أنا ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾ أتحلَّىٰ به علىٰ تحمُّل هذه المصيبة التي تزعمونها ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ يقوِّيني ﴿عَلَىٰ﴾ تحمُّل ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ أنه حدث ليوسف.

ثم ينتقل السياق من حوار يعقوب عليه السلام وأولاده، إلىٰ يوسف عليه السلام القابع في أسفل الجب، حيث يقول سبحانه:

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

أي: ﴿وَجَآءَتْ﴾ مجموعة من الناس ﴿سَيَّارَةٌ﴾ من مَدْيَن إلىٰ مصر، لبعض

أغراضها ومصالحها، فنزلوا قريبًا من هذا البئر الذي فيه يوسف ليستريحون، فجلسوا، وأكلوا، وعطشوا ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ أي: أحدهم يريد الماء ليأتي لهم به، فذهب إلىٰ البئر ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ الذي يُنزع به الماء من البئر، فتعلَّق به يوسف فأخرجه الساقي، فلما رآه بعينه وأبصر حُسْنَه ﴿قَالَ﴾ علىٰ الفور ﴿يَـٰبُشْرَىٰ﴾ طيبة ﴿هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾ رزقنا الله به، ورجع به إلىٰ الرفقة السيارة، وتشاوروا في أمره، واتفقوا علىٰ بيعه، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً﴾ أي: أخفوا أمره ليبيعوه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ وما يفكِّرون فيه، قادر علىٰ صنعه، ولكن له حكمة في ذلك سبحانه وتعالىٰ.

وتحرَّكت القافلة تسير، ومعها يوسف، من مَدْيَن إلىٰ مصر، ووصلت القافلة مصر:

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

يعني: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي: باعوه ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ أي: زهيد قليل، عبارة عن ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ قليلة، وما ذلك إلَّا لأنهم ﴿كَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ الذين يرتضون أيَّ ثمن له، لأنهم لم يدفعوا فيه شيئًا.

واشتراه أحد رجالات مصر، وذهب به إلىٰ بيته.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

أي: لمَّا وصل هذا الرجل الذي اشتراه إلىٰ بيته، وهو فرح به، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي: أحسني إقامته عندنا، واعتني به، وأحسني إليه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ مالًا إن بعناه، أو معاونًا لنا إن أبقيناه ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ لنا. واستقر يوسف في هذا البيت.

ومن تدبير الله أنَّ هذا البيت كان بيت عزيز مصر، الذي يقوم علىٰ خزائنها، يعني: وزير المالية، أو وزير الخزانة بلغة العصر.

﴿وَ﴾ كما نجَّينا يوسف من مكر إخوته، وأنقذناه من الجب، وعطَّفْنا عليه قلب العزيز، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أخذنا في سلسلة الإنعام عليه، حيث ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بدأنا به رحلة التمكين في أرض مصر، ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لِنُعَلِّمَهُۥ مِن﴾ لَدُنَّا ﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ فهم الأمور، وتعبير الرؤىٰ.

إخوته كانوا يفكِّرون ويحتالون لإيذائه، والسيَّارة يبيعونه عبدًا رقيقًا، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ يفعل ما يشاء، لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يخبِّئه القدر، ولا ماذا يريد الله.

وأقام يوسف عليه السلام في بيت العزيز:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

يعني: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ لمَّا تم خلقه، واكتمل عقله ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ حُسْنَ فَهْم، وصلاح عمل، وُبعدًا عن الرذائل، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عادتنا وسُنَّتنا ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جزاءً حسنًا.

ولكمال عقل يوسف، وحُسْن منظره، وجميل صفاته، وطِيب خلقه، وحلو حديثه، وأدبه الجمَّ، أحبَّه كل مَن حوله، وأحبَّته امرأة العزيز حبًّا شديدًا، وصارت تتجمَّل له، وتتعرَّض إليه، حتىٰ وصل الحال إلىٰ ما يقول القرآن:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ امرأة العزيز ﴿ٱلَّتِي﴾ تملك أمره، حيث ﴿هُوَ﴾ يقيم ﴿فِي بَيْتِهَا﴾، وحدَّثته ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وطلبت منه أن يواقعها، ﴿وَ﴾ كانت ساعة إذ قد ﴿غَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ عليهما، ﴿وَقَالَتْ﴾ له صراحة: تعال إليّ افعل ما أريده منك، فقد تهيَّأتُ لك، وتجمَّلتُ من أجلِك، وطال شوقي إليك، ولكنه ﴿قَالَ﴾ لها علىٰ الفور: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعوذ بالله، وألجأ إليه أن يحميني، وينجِّيني ممَّا طلبتِ وتريدينه مني.

ثم قال: كيف أفعل ما تريدين، وزوجك ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ الذي أكرمني في هذا البيت،

﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ إقامتي فيه؟ كيف أخونه؟ إنِّي لو فعلت ذلك، وهذا محال، أكون من الظالمين، حيث ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني: فكيف تخونينه أنت؟

هذا هو التصرُّف الحسي الظاهري، الذي حدث بين امرأة العزيز، ويوسف عليه السلام.

ويصوِّر القرآن التصرف النفسي الخفي الذي كان منهما في قوله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ مع قصد وتصميم وعزم ليوافقها، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ عليه السلام هَمَّ خاطر بحكم الطبيعة البشرية، دون قصد أو تصميم أو عزم علىٰ الفعل لقوَّة إيمانه، وشدة يقينه، وتركه لله؛ فأثابه الله عليه، ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ لكان ما كان، ولذا لم يكن منه شيء، وهذا فهم أقرب إلىٰ الطبيعة البشرية منه إلىٰ العصمة النبوية.

أي: لم يتجاوز همَّه ـ عليه السلام ـ الميل النفسي في لحظة من لحظات الضعف البشري، ثم تداركته العناية الإلٰهية، جزاء إحسانه وصبره الطويل ومثابرته في جهاد النفس والشيطان، بالبرهان المثبت علىٰ الحق، والمُعين علىٰ الصمود، والصارف عن الخطيئة.

وأما هذا البرهان الذي رآه فلم يبيِّنه القرآن، ونحن لهذا الموقف نستريح.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي: علىٰ هذا النحو من رعايتنا له، وإنعامنا عليه، أريناه برهاننا؛ لنصرف عنه السوء والفحشاء، ونقيه أخطارهما.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين صحَّحوا عقيدتهم، وصدقوا في عباداتهم، وطهَّروا أخلاقهم، وأحسنوا في معاملاتهم إخلاصًا لله تعالىٰ.

ولكن هل انتهت العاصفة في بيت العزيز؟ وهل سكت الانفجار الداخلي من امرأة العزيز بامتناع يوسف، وإبائه الشديد..؟

كلا، لقد جرىٰ منها جهة الباب، ليخرج منه، وجَرَتْ خلفه نحو الباب، لِئلَّا يخرج منه:

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

أي: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أنها لحقت به، وأمسكته من الخلف، وهو يحاول الهروب منها، والخروج من أبوابها التي غلَّقتها ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ وهذا أمر طبيعي أن يكون التمزُّق من موضع هذا الشَدّ والجذب، وهو الخلف، وعَقِب هذا الشدُّ والجذب والقدّ للقميص تقع المفاجأة: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾.

فماذا حدث؟ سكت يوسف عليه السلام، سترًا عليها، وإيثارًا للسلامة.

وأما هي فكان جوابها حاضرًا، واتهامها للبريء جاهزًا، ودفاعها الزور عن نفسها واضحًا، واستغفالها لزوجها باديًا، حيث قالت لزوجها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾؟ ولم يكن هذا سؤال استفهام، بل سؤال اتهام.

إذْ جعلت من نفسها الخصم والحكم، أو القاضي والجلَّاد؛ لأنها قالت: ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهكذا حكمت عليه بالإبقاء تحت سلطانها، ليكون تحت عينها، ورهن محاولات أخرىٰ منها، كما حكمت بسرعة؛ لتقطع الطريق علىٰ زوجها أن يسأل، أو يستفسر، أو يعرف، ولتغلق الباب علىٰ يوسف أن ينطق، فيكشف ما حدث.

وأما يوسف فلم يصبر أن يُطعن في شرفه، وأن يُتَّهم بالخيانة لسيِّده، والمعصية لخالقه؛ خاصة وأن الدعاة قُدوَة، وإذا تحطَّمت القُدَوة تهدَّمت الدعوة، حيث:

﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام في عبارة موجزة عفيفة ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ﴾ فقط، ولم يقل غير هذا.

الأمر إذن يحتاج إلىٰ دليل يؤيِّد أحد الطرفين، وليكن الدليل علىٰ يد واحد من أهل امرأة العزيز، ودون ضجة، ودون صخب، ودون دويّ إعلامي:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ولكن بماذا؟ ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

هذا ما يتمنونه أن تكون صادقة في دعواها.

ولكن من باب استكمال الشهادة حتىٰ لا يُتهَّم بالتحيُّز، وهو بالفعل متحيِّز قال:

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

وهذا ما لا نتمناه، ولا نرجو أن يكون.

علىٰ كل حال لابد من المعاينة، المعاينة التي تبيِّن حقيقة هذا الاتهام، وبراءة هذا أو تلك.

ونظر إلىٰ القميص الذي يرتديه يوسف عليه السلام، ونظر معه الجميع؟ فماذا رأىٰ؟ رأىٰ قميص يوسف قُدَّ وقُطِع من الخلف.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

يعني: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ﴾ قميص يوسف ﴿قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ تبيَّن له، وللعزيز: أنَّها هي التي راودته عن نفسه، إذن هو صادق، وهي التي دبَّرت هذا الاتهام.

فماذا يفعلون إذًا؟ لا شيء غير الميل الشديد إلىٰ كِتْمان الخبر، والعجز الأشد عن مواجهة الجاني بجريمته، حيث صدر الحكم، الذي يبرِّر الفعل، ويُلْتمس لصاحبه العذر.

﴿قَالَ﴾ هذا الشاهد ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: هذا الذي حدث ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أيتها النساء، وبذلك لم يواجه امرأة العزيز صراحة ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

أي: يا يوسف انسَ هذا الموضوع، ولا تفاتِح به أحدًا، واستمر في حياتك في القصر كما أنت، ثم توجَّه ليوسف ولها قائلًا:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

وأما أنتِ فاستغفري لذنبك، الذي صدر منك علىٰ سبيل الخطأ ﴿إِنَّكِ كُنتِ﴾ ساعتها ﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ وكأنَّه قَبِل عذرها، وزال خطؤها.

وهكذا تمت المعاينة، وصدر الحكم، دون ضجة إعلامية؛ لأن المجرم من «الطبقة الراقية الحاكمة» التي تتستَّر خلف المظاهر، بل تحافظ عليها.

ولو ظهر أنَّ المجرم فيها يوسف، لصدرت الأحكام، ودوَّت بها أجهزة الإعلام، ونُفِّذت القوانين بمنتهىٰ الشدة والصرامة، من باب إظهار العدل، وإنقاذ القانون، واحترام الحقوق، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

وهكذا عشنا مع يوسف هذه اللحظات العصيبة، ورأينا كيف أنه اعتصم بالله، وتعالىٰ علىٰ الفاحشة، وأظهر الله براءته، وبيَّن طهر ساحته عليه السلام.

ولكنّ هذه المحنة لم تنتهِ، فيوسف عليه السلام لم يخرج من القصر، بناءً علىٰ رغبة أهل القصر.

هذه الفضيحة، التي كانت، لم تَخْفَ، ولم يَمُتْ خبرها؟ بل لقد انتشر أمره بين نساء طبقة القصور:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

لـمَّا عرفت هؤلاء النسوة بما كان أنَّ ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وتدعوه، لتنال منه شهوتها؛ لأنه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، قُلْنَ: هذا لا يليق بها، ولا بمركزها الاجتماعي، ولا بمكانة زوجها، و﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لأنها أخطأت في الاختيار، وفي اشتهار أمرها إذْ أنها لو أحسنت اختيار غير غلامها، أو نجحت في إخفاء أمرها ما كانت في ضلال مبين.

إذن: فالمنتقَد عندهنَّ ليس الفعل، بل طريقة الفعل. **لذلك:**

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ امرأة العزيز بانتقاد هؤلاء النسوة لها، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ دعوة علىٰ طعام ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ مقاعد وثيرة؛ يجلسن عليها، ويسترحن فيها، وقدمت لهنَّ الفاكهة التي تحتاج إلىٰ تقطيع وتقشير ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لتستعملها في الفاكهة، ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: ادخل عليهن، ﴿فَلَمَّا﴾ دخل و﴿رَأَيْنَهُۥٓ﴾ للوهلة الأولىٰ حدث ما يلي:

﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي: أعظمنه، ودُهِشْن لذلك الحُسْن الرائق، والجمال الفائق، وذُهِلْن ذهولًا شديدًا، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: جرحنَ بالسكاكين اللاتي يمسكنها أيديهنَّ من فرط

ذهولهنَّ بجماله، ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ فقد رأينا البشر، إنه من أحسن خلق الله، إنه ملك، لا ليس ملكًا فقط، بل ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وكأنَّ هذا اعتراف منهنَّ بعذر امرأة العزيز فيما كان منها. وفهمت ذلك هي من حالهنَّ وذهولهنَّ. **ولذلك:**

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: ﴿قَالَتْ﴾ لهن ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ يوسف ﴿ٱلَّذِى﴾ عرفتُنَّ قصته معي، و ﴿لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ كما بلغكنَّ ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ وأبىٰ.

﴿وَ﴾ إنِّي أعلنها أمامكنَّ وأمامه صريحة لا مواربة فيها ﴿لَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ به وأريده منه، ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ مع السرَّاق في السجن، كما سرق قلبي ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ الأذلَّاء، فلا يهنأ بعيش ولا منام.

وبهذا التهديد حسمت الموقف، وأعلنت الحرب أمام الجميع.

فماذا كان موقف يوسف عليه السلام؟

لم يكن له إلَّا اللجوء إلىٰ مولاه في هذه الحرب التي لا يملك فيها غير سلاح الإيمان، والتحلِّي بالصبر في مواجهة المحن. **حيث:**

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ يوسف، بعد أن سمع الوعيد والتهديد، ورأىٰ الإصرار العنيد، وموقف النسوة العجيب:

﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي: حبس حريتي في السجن، والتعذيب فيه أحب إليَّ من الوقوع في المعصية، التي تبعدني عنك، وتحرمني من رحمتك.

ثم بيَّن عِلَّة هذا الاختيار، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: اصرف يا رب عني كيدهُنَّ، فأنا بشر ضعيف، قد أُخطئ بحكم بشريتي، ولو حدث ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ العاصين لله.

ولأن، يوسف عليه السلام كان صادقًا في لجوئه إلىٰ الله، وفي هذا الدعاء، ولأن كل مَن دعا الله صادقًا استجاب له مولاه، يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

نعم، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ دعاءه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ﴾ بصرف رغباتهنَّ عنه، أو إدخال اليأس إلىٰ نفوسهنَّ من الأمل في استجابته، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ولكن ماذا بعد أن اتضحت براءة يوسف عليه السلام، وبعد أن اتضحت قوة شخصيته، ومدى الصدق في تمسُّكه بمبادئه، وخوفه من ربه؟

ماذا يكون الحل والسيدة الكبيرة مصرَّة علىٰ رغبتها، وهو متمسِّك بإيمانه، والفضيحة صارت تنتشر؟ وكان الحل الذي يسهل علىٰ كل الطغاة: هو السجن. يقول الله تعالى:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

أي: ﴿ثُمَّ﴾ بعد التفكير في إنقاذ الموقف، والحفاظ علىٰ سمعة القصر ﴿بَدَا لَهُم﴾ الرأي الصائب، فيما يرون وذلك ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ الدالة علىٰ صدقه، والعلامات الدالة علىٰ قوة موقفه ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ ولا تَهُمُّ براءته ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أن تهدأ عاصفة سيدة القصر، أو حتىٰ يموت في سجنه، وتموت معه القضية برمتها.

ونفَّذوا ما أرادوا، ودخل يوسف عليه السلام السجن:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

ولمَّا دخل السجن، وتفرَّغ لعبادة ربه، ومساعدة المسجونين، أحبَّه الجميع، ووثقوا فيه، ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ﴾ اقتربا منه، وقصَّ عليه كل منهما رؤيا رآها في منامه؛ ليعرف منه تأويلها.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ وكان ساقيًا للملك ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ في منامي ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾ أي: عنبًا؛ ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ وكان خبَّاز الملك ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ في منامي ﴿أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُ﴾ وهو فوق رأسي.

ثم قالا له: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾ أي: أخبرنا بتفسير ما قلناه لك ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في العلم وفي العمل.

وهنا: ينتهز يوسف عليه السلام الفرصة ليبُثَّ في السجن والسجناء العقيدة الصحيحة، التي يدين بها، ويدعو إليها، حيث:

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾

نعم، ﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام لهما، وهما في شوق لسماعه كسباً لثقتهما، وتدليلًا على قدرته على تأويل رؤياهما ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ أي: من رزق الله لكما ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا﴾ أي: أخبرتكما به نوعًا ووصفًا ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾.

وكأنهما قالا: مَن علمك هذا؟ قال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ وكأنهما قالا: من ربك هذا؟ وكأنه قال: ربي الله.

ثم أضاف قائلًا: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

ثم واصل قائلًا، وهما يستمعان إليه في لهفة وشوق:

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾

أي: بعد أن تُرِكْتُ دون أن أعتنق مِلَّة الكافرين ﴿وَٱتَّبَعۡتُ﴾ واعتنقت ﴿مِلَّةَ﴾ أي: دين ﴿ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ وهي توحيد الله؛ حيث ﴿مَا

﴿كَانَ﴾ ينبغي ﴿لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ولا ينبغي لأحد من الخلق كذلك.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الدين ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث نعبد ويعبدون الله وحده، فننال وينالون رضاه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ربهم الذي خلقهم على إنعامه عليهم.

وبعد أن رسَّخ هذه الأمور الإيمانية في قلوبهم نادىٰ عقولهم قائلًا:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾

يعني: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ أخبراني بربكما، أيكون لهذا الكون رب واحد قهَّار قادر، أم أرباب متعارضون متفرِّقون؟ أيهما خير لهذا الكون، ومَن فيه؟

ثم أضرب عن الإجابة، وواصل قائلًا:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

أي: يا صاحبي السجن ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أنتم وأقوامكم ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: غير الله ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ لا مسمَّيات ولا حقيقة لها ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ من عندكم، واختلقتموها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ وهي معبودات وهميَّة ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: دليل.

والصواب في الأمر أنه ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ والحاكمية والعبادة، لا تكون ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ الذي خلق الجميع، ورزق الجميع.

وقد ﴿أَمَرَ﴾ سبحانه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وحده.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الثابت، الذي دلَّت عليه الشواهد والبراهين، والذي أدعوكما إليه، وهذا أمر واضح غاية الوضوح، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

ثم قال لهما: بعد هذه الجولة الدعوَّية مفسِّرًا رؤياهما:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ هذا تفسير رؤياكما:

﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ هكذا دون تحديد له، فيخرج من السجن، ويعود لعمله ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ أي: يصير مرة أخرىٰ ساقي الملك، ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ﴾ هكذا دون تحديد له، فُيقتل، ويُصلب، ﴿فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾، وهنا قالا له: «ما رأينا شيئًا»، وذلك من هول ما قال لأحدهما.

قال: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾.

ثم تحوَّل إلىٰ أحدهما:

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾

يعني: ﴿وَقَالَ﴾ يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ﴾ من القتل ﴿مِّنۡهُمَا﴾ وسيخرج من السجن، وسيعود إلى عمله في بلاط الملك ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر حكايتي، وقصتي التي دخلتُ بها السجن ظُلمًا، حتىٰ يعرف الملك براءتي، وأَخرج من هذا السجن.

ويتحقق تفسير يوسف للرؤيا، ويخرج ساقي الملك من السجن، ويعود لعمله عند الملك، ولكن ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ﴾ يوسف وقضيته عند ربه ﴿فَلَبِثَ﴾ أي: مكث يوسف عليه السلام نتيجة لذلك ﴿فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ محبوسًا.

ومضت الأيام، ويوسف عليه السلام في السجن كما هو:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾

ورأى الملك رؤيا فاجتمع الملأ، وهم المقرَّبون من الملك، والعرَّافون، والمنجِّمون، لتفسير هذه الرؤيا، ولكنَّهم لم يعرفوا لها تأويلًا، ولذلك، وبعد تفكير طويل منهم:

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾

أي: ﴿قَالُوٓاْ﴾ للملك هذه ليست رؤيا، ولكنها ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ أي: أخلاط وأباطيل من أحاديث النفس، ووسوسة الشيطان ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ﴾ هذه ﴿ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ ولو كانت رؤيا لفسَّرناها لك.

ولم يسترح الملك لكلامهم، وظَلَّ في حيرته، وشعر بذلك من حوله، ومنهم ساقي الملك، فتذكر يوسف عليه السلام الذي كان معه في السجن:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ٤٥﴾

أي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا﴾ أي: من صاحبي يوسف عليه السلام في السجن، والذي كان قد نسي أمر يوسف، ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أي: تذكَّر الآن ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي: مدة مضت نسي فيها أمر يوسف، قال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾ أي: أعرف مَن ينبِّئكم ﴿بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: بتفسير ما رآه الملك، وعجزتم عن تفسيره، ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ إليه، ولم يصرِّح باسمه، حتىٰ يكون صاحب السبق عند الملك.

وخرج هذا الساقي من عند الملك، وذهب إلىٰ السجن الذي فيه يوسف، ودخل عليه وقال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾

أي: قصَّ عليه رؤيا الملك، وطلب منه تفسيرها، ثم قال: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: الملك وحاشيته بما تقول ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ الحق في أمر هذه الرؤيا، التي وصفوها بأنها ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ [يوسف: ٤٤]، وكذلك: يعلمون فضلك، وعلمك، فيعرفوا قصتك، وأنَّك سُجِنت زورًا.

ودون تباطؤ، أو مساومة، أو عتاب، أو اهتمام بقضيته يفسر يوسف عليه السلام للفتىٰ رؤيا الملك، بتفسير عجيب غريب:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ له ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ ازرعوا الأرض بأنواع المزروعات، سبع سنين متوالية، ﴿دَأَبًا﴾ أي: بجد واهتمام، ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ من هذه المزروعات ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ ليظلَّ رصيدًا سليمًا محفوظًا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ منه فكلوه.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد هذه السنوات السبع الطيبة ﴿سَبْعٌ﴾ سنوات ﴿شِدَادٌ﴾ عِجاف، لا تنبت الأرض فيهنَّ شيئًا، ولذلك هذه السبع العجاف ﴿يَأْكُلْنَ﴾ أهل البلاد، فيهنَّ ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ مما كان محفوظًا، ولا يبقىٰ عندكم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا﴾ كنتم ﴿تُحْصِنُونَ﴾ أي: تتركونه في الحصون.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد هذه السنوات الأربع عشرة، علىٰ البلاد وأهلها ﴿عَامٌ فِيهِ﴾ الرخاء وسعة الرزق، ولذلك ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ بعد الشدة ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي: يكثر الخير ويتنعمَّون به، ويتفكَّهون فيه.

وذهب الساقي بهذا التفسير للملك، لا بل بهذا التخطيط لإدارة الأزمة التي سوف تمرُّ بالبلاد، والتي رآها الملك في منامه، وتعجَّب الجميع:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

أي: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ بعد أن سمع هذا التفسير ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾ لأراه بنفسي، وأسمع تأويله بأذني، وأختبر درجة علمه، وذهب رسول الملك ببشرىٰ الخروج من السجن ليوسف عليه السلام:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ وبلَّغه أمر الملك لم يهرول، ولم يسارع في الخروج، بل ﴿قَالَ﴾ لهذا الرسول في أناة وثقة، وصبر ويقين، وحرص علىٰ سلامة القدوة ومسيرة الدعوة، وإظهار الحق ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: سيدك ومليكك ﴿فَسْـَٔلْهُ﴾ أولًا

﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: ما خبر هؤلاء النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن بالسكاكين في بيت العزيز ذات يوم؛ لأني أريد أن تظهر الحقيقة قبل خروجي من السجن، وتتَّضح براءتي، وأنا بعيد عن مجالس التحقيق.

﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وهو الذي صرف كيدَهنَّ عني، وهو الذي سوف يظهر براءتي.

وهنا: فتح الملك دفاتر هذه القضية، التي تناساها الجميع، وأحضر النسوة وسألهنَّ:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ الملك، أو المحقِّق ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ ما قولُكُنَّ في حقيقة موضوع مراودة يوسف؟ ﴿قُلْنَ﴾ جميعًا، ولم تشذّ واحدة منهنَّ ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ معاذ الله، ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ﴾ قلنها صراحة، و ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ وقد تابت إلىٰ الله من ذنبها ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ وظهر واضحًا، ثم قالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ اعترفت المرأة بنفسها، والاعتراف ـ كما يقولون ـ سيد الأدلة، وبذلك: ثبت صدق يوسف في طهارته وبراءته، حقًّا ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

ثم قالت: قلت ﴿ذَٰلِكَ﴾ الاعتراف ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: لم أذكره بسوء، وهو غائب، ثم قالت: وقد تحولت ـ بفضل الله، وطهارة يوسف عليه السلام ـ من فاجرة **أولًا**، إلىٰ مسلمة **ثانيًا**، ثم إلىٰ داعية **ثالثًا**: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ بل لا ينفعهم أبدًا كيدهم الذي يكيدونه، وهذا كلام لا يصدر إلَّا من قلب دخله الإيمان، وسكنه النور الإلٰهي.

وهذا الاعتراف: لم تكتف به امرأة العزيز، بل أرادت أن تتخلَّص من كل أوزار ماضيها، وقد أجرىٰ الله علىٰ لسانها بلاغة الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، حيث قالت:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

أي: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ مما أرادت وتمنَّت من سوء؛ حيث ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ فمن الناس مَن يطيعها، ومنهم مَن يقاوم انحرافها ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ أي: إلَّا نفسًا رحمها ربي وطهَّرها، فصارت مطمئنة لا تأمر صاحبها إلَّا بخير، كنفس يوسف عليه السلام.

ثم أعلنت توبتها، وطلبت المغفرة من ربها قائلة: ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أطمع في عفوه وغفرانه ورحمته.

وعرف الملك، والحاشية، والدنيا كلها أن يوسف عليه السلام القابع في السجن بريء، لم يقترف ذنبًا، ولم يرتكب خطيئة، وهو يوسف الذي فسَّر الرؤيا، وفيها التخطيط، الذي فسَّر به الرؤيا، هنا:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

أي: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ وقد تعرَّف على شخص طاهر أمين عاقل في مملكته ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ ۖ﴾ لا لأسأله عن الرؤيا، ولا لأحقِّق معه في قضية امرأة العزيز، ولكن ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾ واتخذه مستشارًا لمملكتي، وجاء يوسف ورآه الملك.

﴿قَالَ﴾ المَلِك ليوسف عليه السلام ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا﴾ بعد ما عرفناه عنك ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ من الممكن أن تتخذ ما شئت من القرارات، وكذلك أنت مؤتمن، لا مُراجِع لك، ولا مُعقِّب عليك.

وكانت هذه بداية الابتلاء بالرخاء ليوسف عليه السلام، بعد انتهاء الابتلاء بالشدة ساعة خروجه من السجن.

ولأنَّ يوسف يستشعر الأزمة القادمة على مصر، ويستشعر أيضًا مسؤوليته على إدارتها، وقدرته ـ بعون الله ـ على إخراج البلاد سالمة منها، فقد:

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ للملك ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي: أرض مصر، ويبدو أنها كانت خزائن أرض الدنيا كلها، حيث ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أمين على ما في الخزائن، علىم بوجوه التصرُّف فيها.

وأجابه الملك علىٰ الفور، وأصبح يوسف عليه السلام وزير الخزانة:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

أي: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وبعد المحن الطويلة الثقيلة ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ يتصرَّف فيها ويدبِّر شؤونها وينتقل في أرجائها، ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ فالثقة في عدالته متوفِّرة، واليقين في إخلاصه موجود.

وهكذا ﴿نُصِيبُ﴾ أي: نخصُّ ونعطي ﴿بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ من عبادنا، والقاعدة الربانية، والسُّنَّة الربانية: أنّ الله تعالى قال: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وليس هذا فقط، بل كذلك:

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

نعم أجر الآخرة ليوسف عليه السلام، ومن كان علىٰ طريقه من المؤمنين المتقين: أعظم وأفضل من كل أجر وفضل رأوه ـ أو يرونه ـ في الدنيا.

ويتسلم يوسف عليه السلام مقاليد الوزارة، ويدير شؤونها وتبدأ الأزمة، ويديرها يوسف بحِكمته، ويتسامع أهل البلاد المجاورة عن الخير ـ في بلاد مصر ـ خلال هذه الأزمة التي ملأت شهرتها الآفاق، ويحضر الناس إلىٰ مصر من كل البلاد طلبًا للغذاء:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

أي: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ بسبب هذه الأزمة من بلاد كنعان، ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ طلبًا للغذاء، مثل باقي الناس ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف عليه السلام ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لا يعرفونه.

وحقَّق لهم مطالبهم، وجهَّز لهم جهازهم، وسألهم عن أحوالهم، واستخرج منهم بعض أخبارهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

أي: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ﴾ لهم بعد أن أكرمهم ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ الذي حدَّثتموني عنه، في المرة القادمة، لأراه وأعرف صِدْقكم.

ثم قال لهم مرغِّبًا: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ الذي ترغبون فيه ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ لكم فيما تستريحون فيه من الأماكن؟

ثم قال لهم ـ كذلك ـ مخوِّفًا:

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾

أي: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ﴾ إن لم يكن معكم في المرة القادمة: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾، ولا بيع معكم ولا شراء منكم ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ كذلك ولا تقربوا بلادنا.

ونظرًا لشدة حاجتهم إلىٰ الطعام من مصر لم يرفضوا، بل:

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

يعني: سنحاول مع أبيه، ونقنعه أن يرسله معنا، وسيكون ما تريد، وسيحضر معنا في المرة القادمة.

وإغراءً لهم علىٰ العودة فكَّر في شيء:

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

أي: ﴿وَقَالَ﴾ يوسف لرجاله: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ أعيدوا لهم بضاعتهم التي أحضروها معهم ليشتروا بها منَّا، وضعوها ﴿فِى رِحَالِهِمْ﴾ دون أن يعرفوا ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ أي: يرونها ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ أي: عادوا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾، فيعرفون أنَّ طعامنا كان هدية لهم بلا ثمن ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بذلك ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إلينا بأخيهم.

وتم ما أمر به يوسف عليه السلام في أمر البضاعة، وعاد إخوة يوسف بالطعام إلىٰ بلادهم، وإلىٰ أبيهم:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟﴾ لأبيهم، ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ لقد أحضرنا الطعام هذه المرة، ولكن قد تنبَّه علينا أنَّه لا طعام لنا بعد ذلك إلَّا إذا كان معنا أخونا الذي تركناه معك، والذي لم يأت معنا هذه المرة، لذلك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ﴾ في المرة القادمة ﴿أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ وهو معنا، ثم نأتي بالطعام ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أي أذى أو مكروه.

أعاد هذا الطلب على هذا الوالد.. ذكريات يوسف، الذي قالوا له عنه ذات يوم ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[يوسف: ١٢]!! ولذلك:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم إنكم قلتم في يوسف عليه السلام مثل ذلك من قبل، ولم توفوا بوعدكم فـ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فيضيع منكم أيضًا ﴿كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾؟

فدعوني ودعوا لي ولدي.. لأنّكم لا تحفظون أحدًا، ولكن: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

ويبدو أنهم عرفوا أنَّ المحاولة مع أبيهم لن تنجح، إذن فليستريحوا من عناء السفر، ثم ـ بعد ذلك ـ يفتحون متاعهم، واستراحوا، ولكن:

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

أي: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ ما هذا الكرم من عزيز مصر، طعام بلا ثمن؟ إنه رجل كريم، وتوجَّهوا إلى أبيهم بهذه المفاجأة السَّارَّة، و﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ ماذا نريد أكثر من هذا؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾ انظر إليها، لقد ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ من هذا الرجل الكريم.

وحاولوا مرة أخرىٰ معه بالنسبة لأخيهم فقالوا: ما المانع أن ترسل معنا أخانا ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نُحضِر لهم الطعام من مصر ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ كما وعدناك، ولا خطر عليه، كما رأيت من كرم أهل مصر ﴿وَنَزْدَادُ﴾ بوجوده معنا ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ من الطعام.

﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ذلك يا أبانا أمر يسير، فلا تمانع فيه.

وأمام هذه المحاولات: استسلم الرجل الكبير علىٰ كُرْه، ولكنَّه اشترط عليهم:

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ إلىٰ مصر ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: تقسمون لي بالله، وتعطوني عهدًا علىٰ أنفسكم ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ أي: تحافظون علىٰ ولدي، وتحضرونه لي ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلَّا إذا غُلِبتم علىٰ أمركم، وخرج الأمر عن إرادتكم، وهنا سارعوا وأقسموا وآتوه موثقهم.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ لم يكتف بذلك، بل ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

ثم وجَّه لهم النصيحة، ووصَّاهم بحنان الوالد، وخبرة المجرِّب، مفوِّضًا أمره وأمرهم لله الواحد القهَّار:

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا﴾ مصر ﴿مِن بَابٍ وَاحِدٍ﴾ من أبوابها ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ بعضكم من باب، وبعضكم من آخر أخذًا بالأسباب، حيث إن النافع والضار هو الله ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ إن أراد لكم شيئًا غير ما أريد أنا ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ولذلك فالإيمان يقتضي التفويض لله.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وفوَّضت أمري، وأمر يوسف، وأمر ابني هذا، وأمركم جميعًا.

﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فتوكَّلوا عليه.

ولمَّا جاء موعد السفر سافر إخوة يوسف عليه السلام من عند أبيهم، ومعهم أخوهم وذهبوا إلىٰ مصر، ودخلوا مصر، ونفَّذوا وَصِيَّة أبيهم:

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

أي: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ لمَّا نفَّذوا وصيَّة أبيهم في دخول مصر لم يمنع ذلك من قدر الله، ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ ولكنَّها كانت رغبة ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ وصيَّة وصَّاها لهم؛ لخوفه عليهم، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ علىٰ كل حال ﴿لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ من قدر الله، ووجوب الإيمان به، والتسليم له، والصبر عليه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولذلك: فأكثرهم لا يستسلمون راضين بقضاء الله وقدره، ولا يفوِّضون أمورهم لله.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

أي: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ هذه المرة ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وكان معهم أخوهم الذي طلب يوسف عليه السلام رؤيته ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ اختلىٰ يوسف بأخيه، وعرَّفه بنفسه ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ بنا ـ أنت وأنا ـ فيما مضىٰ؛ فإنَّ الله قد أحسن إلينا، وجمعنا علىٰ خير.

ويبدو أنَّه أمره بكتمان معرفته به عنهم، كما أخبره أنه سيحتال عليهم ليبقيه عنده معزَّزًا مكرَّمًا عنده، لغرض يريده، واتفقا علىٰ كتمان ذلك أيضًا، يقول الله تعالىٰ:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ أعطاهم يوسف عليه السلام بضاعتهم، وأخفىٰ فيها السقاية، وهي صواع الملك، وجعلها ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أي: متاع أخيه.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ ثم تظاهر أتباع يوسف عليه السلام أنهم يبحثون عنها، ثم اتهموا العير كلها، أي: أصحاب الجمال كلهم بالسرقة.

وفزع إخوة يوسف:

﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾ اقترب إخوة يوسف من أتباع يوسف، وسألوهم قائلين ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؟ أي: ما الذي ضاع؟

﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ أي: أجاب رئيس هؤلاء الأتباع قائلًا: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: الذي ضاع هو صواع الملك، الذي يشرب به، والذي نكيل به الطعام، وعلىٰ كل حال ﴿لِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ ورَّده إلينا مكافأة كبرىٰ، وهي ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام، ثم قال هذا الرئيس: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي: كفيل بدفع هذه المكافأة.

واستنكر إخوة يوسف عليه السلام هذا الحدث:

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟﴾ وأقسموا ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ أنا جئنا لطلب الطعام فقط، و ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بسرقة أو غيرها ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ وما عُرِف عنَّا ذلك، ولا ينبغي لنا أبدًا.

﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ ما جزاء هذا السارق، حتىٰ ﴿إِن﴾ كان منكم أنتم، وظهر أنكم ﴿كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ في كلامكم هذا؟

ولأنَّ إخوة يوسف واثقون من موقفهم، ومن براءتهم، فقد ردُّوا عليه سريعًا:

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي: جزاء السارق في شريعتنا، أن يؤخذ ﴿مَن وُجِدَ﴾ الشيء المسروق ﴿فِى رَحْلِهِۦ﴾ وبالتالي ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي: عقابه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ عندنا ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: السارقين، الذين يظلمون بسرقتهم غيرهم.

ووافق يوسف، ومن معه على هذا الجزاء، وأمر ببدأ التفتيش في الأمتعة عن صواع الملك:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

أي: ﴿فَبَدَأَ﴾ بدأ المفتش في البحث ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ أولًا قبل البحث في ﴿وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ حتى لا يثير شكوكهم أنَّ الأمر مدبَّر ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: السقاية ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ أي: من متاعه، وبذلك ينفِّذ الحكم بأخذ أخيه، ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وهكذا تمت حيلة يوسف لأخذ أخيه منهم دون أن يعرفوا شيئًا.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في حكم ملك مصر، إلَّا بمشيئة الله تعالى.

﴿نَرْفَعُ﴾ في العلم ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ عالية ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ من عبادنا، كما رفعنا يوسف عليه السلام.

ولكن، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ هم دونه في العلم، وهو الله تعالى.

نجح يوسف عليه السلام: في أن يأخذ أخاه منهم بهذه الحيلة التي هداه الله إليها، فماذا فعل إخوة يوسف الذين أخذ عليهم أبوهم المواثيق بإعادة هذا الابن إليه..؟

﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

أي: لمَّا أخرج المفتش صواع الملك من رحل أخيهم، نكسوا رؤوسهم خجلًا من الفضيحة، و﴿قَالُوٓاْ﴾ تبرئة لساحتهم: ﴿إِن يَسۡرِقۡ﴾ هذا الأخ ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ﴾ من أمه ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: من زمن مضىٰ.

ولأن يوسف عليه السلام لم يسرق، فقد قال علىٰ الفور ﴿قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ أي: كاذبون، ولكن لم ينطق بها بل ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾ وكتمها ﴿وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ لئلا يعرفوه.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أخاكم، ولكن لنا الظاهر الذي وجدناه.

وحاول الإخوة محاولة لفك أسر أخيهم، حيث:

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾

أي: ﴿إِنَّ﴾ لهذا الأخ ﴿أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ يحبُّه، وسوف يحزن كثيرًا لفراقه، وقد أخذ علينا العهود أن نرده إليه، ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا﴾ وضعه ﴿مَكَانَهُۥ﴾ عندك، في دين الملك، ولا تَرُدَّ لنا هذا الطلب ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في أفعالك وأقوالك، فأحسن إلينا.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾

يعني: أجاب علىٰ اقتراحهم ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ نعوذ بالله، من ﴿أَن نَّأۡخُذَ﴾ أحدًا ﴿إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، فهو لم يقل: «إلَّا من سرق» لأنه يعرف أن أخاه لم يسرق.

ثم قال: ولو أخذنا غيره ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ حيث نأخذ بريئًا، وهذا ظلم، ونحن لا نحب الظلم ولا الظالمين.

وبهذا عرفوا أنه لا فائدة من هذه المحاولات، ويئسوا من أخذ أخيهم معهم:

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ

﴿أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ يئسوا من أخذ أخيهم ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ﴾ أي: جلسوا وحدهم يتشاورون ويتناجون في هذا الموضوع، وكيف يتصرفون.

وهنا ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ أي: أنسيتم ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ عهدًا ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في أخيكم هذا أن تروده له؟ ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمْ فِى يُوسُفَ ۖ﴾ أنسيتم تفريطكم في أخيكم يوسف من قبل أيضًا؟

إني أخجل من مقابلة أبي، ولذلك ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن أغادر أرض مصر، وسأظلُّ هنا ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ بالعودة راضيًا عني ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ﴾ بما يريد، بالخروج أو بالموت أو بتخليص أخي هذا ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ حيث لا يحكم إلَّا بالعدل، وأنا راضٍ بحكمه سبحانه. وهذا ما يخصُّني، أما أنتم:

﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ۖ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ۖ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

يعني: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟﴾ عودوا أنتم ﴿إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ ودافعوا عن أنفسكم، وأزيلوا تهمة الإهمال عنكم ﴿فَقُولُوا۟﴾ لأبيكم ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ۖ﴾ صواع الملك، وأخذوه في دين الملك، ونحن لا نتَّهمه ولا نبرِّئه ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ۖ﴾ ورأينا حين استخرجوا المسروق من متاعه، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ ۖ﴾ المخبَّأ هذا، وما سوف يحدث فيه، حيث أعطيناك العهد ﴿حَٰفِظِينَ ۖ﴾ أي: عالمين به، وإلَّا لمَا أخذناه.

وعادوا إلىٰ أبيهم وأخبروه الخبر، وقالوا ما قاله أخوهم وأضافوا ـ كذلك ـ قائلين لأبيهم:

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أي: ﴿وَسْـَٔلِ﴾ إن كنت لا تصدِّقنا فيما قلناه، فاسأل أهل ﴿ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا

﴿فِيهَا﴾ وهي مصر، ﴿وَٱلْعِيرَ﴾ واسأل كذلك القافلة ﴿ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ من مصر.

﴿وَإِنَّا﴾ على أية حال ﴿لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من شأن أخينا.

وفُجِع يعقوب عليه السلام بهذا الخبر، وكأنَّه لم يصدِّق ما قالوه، حيث:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم ليس الأمر ـ فيما اعتقد ـ كما تقولون، ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ يعني: زيَّنت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ﴾ غير ما تقولون، الله أعلم به ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾ أتحلَّى به، وأُعزِّي نفسي معه، لفقد أولادي الثلاثة.

ثم قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ﴾ بكرمه وقدرته.

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما قدَّره لي ولأولادي.

ولم يقل غير هذا:

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ يعني: أعرض عنهم، وسكت عن مواصلة الحديث معهم ﴿وَقَالَ﴾ شاكيًا إلى ربه ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: يا شدة حزني عليه، وصار يبكي، بل زاد بكاؤه في صمت، حتى ضعف بصره ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ المكتوم، المؤلم ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ لِغَيْظه، لا يشكوه لأحد إلَّا لله وحده.

ولمَّا رآه أولاده في هذا الحال:

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟﴾ لأبيهم.. ﴿تَٱللَّهِ﴾ أي: والله ﴿تَفْتَؤُا۟﴾ أي: لا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ وتبكي عليه، وتتوجع من أجله ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: ضعيفًا عليلًا

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ في عداد الموتىٰ، إن بقيت علىٰ هذا الحال.

يعني: خفِّف عن نفسك، وهوِّن عليك أمرك يا أبانا.

ولأنَّ هذا البكاء من الفطرة، ولأنَّ هذا الحزن غريزة، ولأنَّ يعقوب عليه السلام لم يجزع، ولم يتَّجه بشكواه لأحد:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى﴾ وهو أصعب الهمّ، الذي لا يصبر عليه صاحبه حتىٰ يبثُّه، ويحكيه للغير ﴿وَحُزْنِىٓ﴾ علىٰ ما أصابني ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ فقط، لا إلىٰ أحد من خلقه، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ﴾ رحمة الله بي ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولا أيأس من رحمته أبدًا. ولذلك أقول لكم:

﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

أي: ﴿يَٰبَنِىَّ﴾ لا تفقدوا الأمل في رحمة الله بنا، ولا تقعدوا عن البحث عن أخويكما، بل ﴿ٱذْهَبُواْ﴾ في البلاد ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ الأخبار ﴿مِن﴾ الناس، عن ﴿يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ عسىٰ أن تجداهما، ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ﴾ خلال هذا البحث عنهما ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ أي: من رحمته وفرجه، حيث ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وأنتم بفضل الله مؤمنين، واثقين في رحمة الله.

وأطاع الأولاد أباهم وخرجوا من عنده من أرض كنعان بالشام، وذهبوا إلىٰ مصر حيث تركوا أخاهم، ليأتوا بالطعام، وليحاولوا استخراج أخيهم وإعادته معهم، وذهبوا إلىٰ عزيز مصر:

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ علىٰ عزيز مصر ﴿قَالُواْ﴾ له: بلغة الضعف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ

﴿مَسَّنَا﴾ ونزل بنا ﴿وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أي: الضرر من الجوع والفقر ﴿وَجِئْنَا﴾ إليك هذه المرة ﴿بِبِضَٰعَةٍ﴾ من عندنا ﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾ رديئة نوعًا ما، حيث لا نملك غيرها، ولا يرغب فيها أحد، فلا تردَّنا بها، وتكرَّم علينا ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ كعهدنا بك ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بإطلاق سراح أخينا، ليعود معنا، وسيجزيك الله على ذلك خيرًا، حيث: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ خيرًا من أمثالك.

ولأنَّ حديثهم بدأ يكتسي بنبرة الإيمان، ولأنه قد تغيَّر وضعهم، وصلح حالهم، ولأنَّ إخفاء شخصيته عنهم آتىٰ ثماره، ولم يعد له مبرر، فقد بدأ يكشف لهم عن نفسه، حيث:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم يوسف عليه السلام ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ أي: أدركتم وفهمتم، قبح ﴿مَا فَعَلْتُم﴾ قديمًا ﴿بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ من الأذىٰ ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ أي: وقت جاهليتكم ومعصيتكم وبعدكم عن الطاعة.

وذُهِلوا للوهلة الأولىٰ، وتعجَّبوا من أنفسهم، كيف لم يعرفوه، وهم يتردَّدون عليه منذ فترة، ثم نطقوا:

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

أي: ﴿قَالُوٓاْ﴾ له في استعظام من هول المفاجأة ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ﴾ أخونا؟

﴿قَالَ﴾ يوسف، نعم ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ﴾ ولم يعاتب، بل ذكر إنعام الله، وفضله قائلًا: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ﴾ بكرمه وحفظنا.

حيث: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ الله بترك المعصية، وفعل الطاعة ﴿وَيَصْبِرْ﴾ عن المعاصي، وعلىٰ الطاعة، وعلىٰ بلاء الله وقدره وقضائه، فهو من المحسنين، ولا يضيع الله أجره وجزاء تقواه وصبره، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ عظيم كريم ﴿لَا يُضِيعُ﴾ أبدًا ﴿أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وفرح إخوته وعرفوا فضل الله علىٰ مَن يتق ويصبر حقًّا، ثم:

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾

أي: ﴿قَالُواْ﴾ له وأقسموا ﴿تَٱللَّهِ﴾ يا يوسف ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ﴾ أي: فضَّلك ﴿ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالصبر، والعقل، والصفح، والحلم، وغير ذلك.

ثم اعترفوا بذنبهم له قائلين: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ في حقِّك وحقِّ أخيك، وحقِّ الله تعالىٰ.

وبأدب النُّبوَّة، وعِفَّة اللسان، وسماحة الأنبياء:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا عتاب، ولا ملامة، ولا مؤاخذة عليكم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ وغير اليوم.

ثم دعا لهم بالمغفرة قائلًا: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ بإذنه تعالىٰ ما سبق منكم، ويرحمكم بعفوه ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فلا تبتئسوا أبدًا.

ثم سألهم عن أبيهم فقالوا: ﴿ٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤] عليك، قال لهم:

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

أي: ﴿ٱذْهَبُواْ﴾ إلىٰ أبي ﴿بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾ يرتدُّ إليه بصره، و﴿يَأْتِ﴾ إليَّ ﴿بَصِيرًا﴾ بإذن الله، ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿أْتُونِي﴾ أي: أحضروا معكم أهلكم، أي: آل يعقوب ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

وأخذوا القميص من يوسف عليه السلام، وخرجوا من عنده متجهين إلىٰ أبيهم وأهليهم ببلادهم:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾

يعني: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أي: لمَّا خرجت العير من ديار مصر ﴿قَالَ

﴿أَبُوهُمْ﴾ وهو في الشام لمن حوله ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ الطيِّبة فيما يهبُّ عليَّ من الرياح. وهي حقيقة ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ كلامي ولا تصدِّقونه.

وأنكر ـ بالفعل ـ مَن حوله هذا الكلام:

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

أي: ﴿قَالُواْ﴾ له: والله إنك تهذي من أوهامك القديمة، بسبب حبك ليوسف.

ولم يمضِ وقت طويل علىٰ هذا الكلام: حتىٰ وصلت العير من مصر، وجاء إخوة يوسف، ومعهم القميص:

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ وهو حامل القميص ﴿أَلْقَىٰهُ﴾ أي: بسطه ونشره ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ كما أمر يوسف عليه السلام ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ عاد ـ بقدرة الله ـ إليه بصره.

وهنا: ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام لأولاده ولمن حوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ سابقًا ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ رحمة لي ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ولا أياس من رحمته أبدًا؟

وانتهز أولاده غمرة الفرح، وهم يشعرون بالذنب، ويُبدون الندم، حيث:

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾

أي: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ سل ربك أن يغفر لنا ذنوبنا التي ارتكبناها في حقك وحق أخوينا ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: اعترفنا بخطايانا، وتبنا عنها، وندمنا عليها.

ماذا قال لهم يعقوب عليه السلام؟

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

يعني: لم يجبهم فورًا إلىٰ ما طلبوا، ولكن قال لهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾

وأخَّر ذلك ليعرف صدق توبتهم، ثم طمَّعهم في عفو الله قائلًا: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ثم قالوا لأبيهم وأهليهم رغبة يوسف عليه السلام في أن يذهبوا جميعًا إليه بمصر، وخرج الجميع من بلاد الشام، ووصلوا إلىٰ مصر.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ﴾ عزيز مصر، وهو ﴿يُوسُفَ﴾ عليه السلام: استقبلهم استقبالًا حافلًا، ثم ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ أي: ضم ﴿إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ إعلاءً لشأنهما، ورفعاً لقدرهما، وبرًا بهما، ﴿وَقَالَ﴾ لجميع آل يعقوب ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾ أي: أقيموا بها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من القحط والجوع والظلم.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

وعقد يوسف اجتماعًا عامًا يحتفل فيه بقدوم آل يعقوب إلىٰ مصر، وفي هذا الاجتماع: ﴿رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أجلسهما في مكان بارز، علىٰ سرير الملك، وهو أرفع مكان في المملكة، تكريمًا لهما، ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي: خضع له الجميع، وحيَّوه، وهم أبواه، وإخوته الأحد عشر.

وهنا قال يوسف عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا﴾ أي: هذا الذي تراه الآن هو ﴿تَأْوِيلُ رُءْيَىَ﴾ التي رأيتها ﴿مِن قَبْلُ﴾ وقصصتها لك ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ أي: حقيقة.

ثم أكمل في هذا الحشد ذِكر نِعَم ربه عليه قائلًا: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ كثيرًا ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ الذي دخلته ظلمًا وزورًا، وهو لم يذكر نعمة الإخراج من الجب، لئلا يُحرِج إخوته الذين تابوا وندموا، أمام هذا الجمع، وفي هذا الوقت، ثم

أضاف من النعم قائلًا: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ إلىٰ هذه الديار الطيبة ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ فقد نسب ما حدث إلىٰ الشيطان، وقدم نفسه ـ فيما فعل الشيطان ـ علىٰ إخوته، وذلك من عفة لسان الأنبياء.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ﴾ في تدبيره ﴿لِّمَا يَشَآءُ﴾ من أمور، وقد لطف بي في كل ما حدث من ابتلاءات في الشدة أو في الرخاء.

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما يقدِّره ويختاره لهم.

فكانت هذه خطبة العرش، وكلها إيمان وشكر لله رب العالمين، ولكنها لم تنتهِ بعد، حيث أكمل قائلًا في مناجاة صادقة صافية مع الله:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

بدأ يوسف عليه السلام لقاءه مع مولاه بذكر نعمه عليه، حيث قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: بعض الملك، آتيتني منه سلطانًا ومكاناً وجاهًا ومالًا، وذلك من نعم الدنيا، ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: بعض علم التعبير، وذلك من نعمة العلم.

وبعد أن عدَّد النِّعَم، ورَدَّ الفضل لمولاه وأثنىٰ عليه سبحانه، حيث قال: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يا رب يا خالق السموات والأرض ومبدعهما ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ وناصري ومُتولِّي أموري ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ والمُنْعِم عليَّ بالعفو في ﴿الْأَخِرَةِ﴾.

وبعد أن أثنىٰ علىٰ ربه طلب حاجته قائلًا: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ خذني إليك وأنا علىٰ نعمة الإسلام ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين أنعمت عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشهداء.

وهذا هو النجاح الحقيقي، وهذه هي الفرحة الحقيقية.

وهكذا انتهت قصة يوسف عليه السلام بما فيها من دروس، وعِظات بالغات.

ويكون التعقيب عليها من المولىٰ مع الحبيب ﷺ، حيث يقول له:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

أي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك يا محمد ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ التي لا تعرفها أنت ولا قومك، ولكنَّا ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ إنعامًا بك، وتشريفًا لك، ﴿وَ﴾ هي أمور وأحداث ما كنت تعلمها، بل ﴿مَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: مع إخوة يوسف حينما ﴿أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ على فِعْل ما فعلوا ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بأخيهم.

ولكنَّا عرَّفناك ذلك بالوحي من عندنا، وينبغي أن يؤمن بهذا الوحي، ويؤمن بنا، ويصدِّقك كل إنسان ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ كما تحب وترجو.

ولعدم إيمانهم، فلا تغتم، ولا تحزن، فإنك ﴿مَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ﴾ فيكون انصرافهم عنك، وعدم إيمانهم بك خوفًا من دفع الأجر إنما هم قوم لم يُرِد الله هدايتهم.

ولذلك فإن ما تقول: مما يوحى إليك ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: تذكرة وهداية وموعظة للناس كلهم في ربوع الدنيا كلها، يرفع الله به شأن مَن اهتدى بهديه.

ثم بعد هذا التشريف الإلٰهي لمحمد ﷺ، وبعد هذه التهدئة الربانية لنفسيته التي تتألم لعدم إيمان قومه، وبعد أن بيَّن له عدم اهتدائهم بالآيات المسطورة في القرآن يبيِّن له عدم اهتدائهم بالآيات المنظورة في الأكوان، والنتائج المترتبة على هذا العناد، فيقول:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

يعني: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما من آية، وهي كثيرة جدًّا ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ ويرونها في أسفارهم ورحلاتهم، إلَّا ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يستفيدون منها، ولا يؤمنون بالله بسببها، وذلك بالرغم من أنَّك لو سألتهم ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]!! ولكنَّ إيمانهم هذا يرافقه شرك بهذا الخالق العظيم.

ولذلك فإنه ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ معه غيره من صنم، أو بشر، أو طبيعة، أو غير ذلك.

ومع أنَّ هذه الحجة قد قامت عليهم بهذا القرآن المسطور، فقد أقيمت كذلك عليهم بآيات هذا الكون المنظور، إلَّا أنَّهم لم يلتفتوا إلىٰ هذه الآيات المسطورة، أو المنظورة، ومَن التفت منهم إليها أو إلىٰ بعضها: يؤمن بالله علىٰ شرك.

ولذلك فليس العيب: من عدم الدليل، أو من عدم وضوح الدليل، ولكن في العناد عندهم، والسلوك المنحرف لديهم، ومن هنا يكون الإنذار والتهديد لهم.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ﴾ نقمة تغشاهم وتشملهم ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ إن ظلُّوا علىٰ عنادهم وكفرهم! ﴿أَوْ﴾ أَمِنوا أن ﴿تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وهي يوم القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمجيئها، ولا يستعدون لها، لم يأمنوا هذا ولا ذاك.

إنَّ موقفًا كهذا لا يملك الداعية أمام عناد أهله إلَّا أن يوضِّح طريقه، ويبلِّغ دعوته فقط، إبراءً للذمة، وأداءً للأمانة، ولذلك يقول ربنا تبارك وتعالىٰ لحبيبه ﷺ:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ وطريقتي ومنهجي، ودعوتي ﴿أَدْعُوٓاْ﴾ بها ومن خلالها ﴿إِلَى﴾ دين ﴿ٱللَّهِ﴾ وعبادته، وتوحيده، ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ فيها، ويقين بها، ولست وحدي في ذلك الطريق، بل ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ ندعو إلىٰ الله جميعًا، وفقًا لذلك، ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ عن كل شريك وتنزه عن كل مثيل أو شبيه ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾ ولا مَنْ معي ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أبدًا معه غيره سبحانه.

وبعد أن لفت المولىٰ نظر الحبيب ﷺ، والدعاة معه إلىٰ وجوب توضيح دعوته، وبيان منهجه، ينتقل معه بالمواساة والتثبيت له إلىٰ إخوانه من الأنبياء، فيقول له:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

أي: لست وحدك يا محمد فيما تلاقيه من إيذاء قومك وعنادهم، فلقد ﴿أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ رسلًا كثيرين إلىٰ أقوامهم، وما كانوا ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ أشداء ﴿نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أهل ألفة، وعشرة طيبة مع أقوامهم، ومع ذلك: فقد حدث لهم ما حدث لك. فماذا فعلنا مع أقوامهم الذين آذوهم وعاندوهم؟ عاقبناهم بما يستحقون.

ولهذا، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أي: قومك ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ ويعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فلا يفعلون مثلما فعلوا، ويعلموا أن الإيمان بالله، والعمل للدار الآخرة ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ غضب الله تعالىٰ.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه الدورس؟

ثم يبيِّن رب العزة لحبيبه ﷺ إيناسًا له، وتأييدًا لدعوته، وإعلامًا بنصرته، وتعليمًا لأمته، وتربية لأتباعه أمورًا في غاية الأهمية، حيث يقول المولىٰ عز وجل:

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

تبيِّن هذه الآية الكريمة ثلاثة أشياء:

الأول: الحال التي وصل إليها الرسل عليهم السلام من عناد أقوامهم معهم، وتكذيبهم لهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾، أي: أرسلنا قبلك يا محمد رسلًا بلَّغوا أقوامهم، ولم يؤمنوا بهم، ولم نعاقبهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ وفقدوا الأمل في إيمان قومهم، بل ﴿وَظَنُّوا﴾ وأيقنوا أن قومهم كذَّبوهم، وليس فيهم رجاء، ماذا حدث؟

الثاني: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ بعذاب أقوامهم، ولم ينجُ إلَّا هؤلاء الأنبياء، ومَن آمن معهم ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾. وسُنَّتنا في مثل هذا الحال:

الثالث: أنه ﴿لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ولذلك: فلا تيأس ولا تبتئس يا محمد من عدم إيمان قومك.

وأخيرًا، وفي نهاية السورة يوضِّح ربنا عز وجل الحكمة في سرد القصة في القرآن الكريم فيقول:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

أي: ﴿لَقَدْ كَانَ﴾ الهدف ﴿فِي﴾ ذكر ﴿قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ على هذا النحو: هو العبرة والعظة والفائدة، ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الذين يُعمِلون عقولهم فيها، ويستفيدون بها.

و﴿مَا كَانَ﴾ أبدًا هذا القصص ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ بل هو وحي من الله تعالى فيه التشريع، وفيه الدستور، وفيه منهج الفلاح والنجاح، ﴿وَلَٰكِن﴾ مع ذلك، نوضح أهداف هذا القصص فيما يلي:

أولاً: ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ممَّا نزل على الأنبياء السابقين قبل تحريفه.

ثانياً: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الحلال والحرام، وغير ذلك.

ثالثاً: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: هُدى من الضلال، وهداية للرشاد، ورحمة من متاعب الحياة في الدنيا، بل رحمة من عذاب الله في الآخرة.

ولكن لمن؟ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيهتدون.

* * *